المحاضرة الثامنة : التفكيك والمنطق اللساني الحديث

1_ استراتيجية التفكيك والمنطق اللساني الحديث .

2- علاقة التفكيك بالواقع .

3_ مميزات الممارسة التفكيكية .

4_ نقد التفكيكية .

حوصلة .

المحاضرة الثامنة : التفكيك والمنطق اللساني الحديث

1_ استراتيجية التفكيك والمنطق اللساني الحديث:

أ_ تدمير العلامة اللغوية :

تعريف اللغة :

قال ابن جني (ت 392)في تعريف اللغة : " أما حدّها (فإنّها أصوات) يُعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم[1] " يلتقي هذا التعريف ويتطابق مع الكثير من مقولات اللسانيات الحديثة ، حيث يكون للغة وظيفة تعبيرية ، وظيفة اجتماعية ، وظيفة إبلاغية (تواصلية) .

تعريف سوسير للغة (1857-1913):

اللّغة في جوهرها نظام من الرموز الصوتية ، أو مجموعة من الصور اللفظية تُختزن في أذهان الجماعة اللغوية ، وتستعمل للتفاهم بين أفراد مجتمع معين.

بهذا تكون فكرة أنّ اللغة توقيف وإلهام فكرة ساذجة جدا في الدرس اللساني الحديث ،وذلك منذ أن " وجّه دي سوسير نقده لميتافيزيقا الحضور ، أو مركزية الكلمة ، وتبشيره بعلم العلامات ، وجعل العلاقة بين الدال والمدلول علاقة اعتباطية أو غير ضرورية ."[2] ولكن كيف وصف دوسير العلامة اللغوية ؟ أو بعبارة أخرى كيف تصبح العلامة اللغوية حاملة للمفهومية؟

لفهم هذه القضية يجب العودة إلى المراحل التي تشكل العلامة اللغوية كي تصبح هذه العلامة حاملة للمفهومية وهي ثلاثة مراحل : مرحلة المواضعة ، مرحلة الاستعمال والتداول ، مرحلة التجريد أو المجاز أو البلاغة .

في مرحلة المواضعة يوضع دال بايزاء مدلول ، لكن ما هي العلاقة بينهما ؟

يرى دي سوسير أنّ العلاقة بينهما في أوّل الوضع هي علاقة اعتباطية أو عشوائية أو جزافية،وهذا ما ذهب إليه الكثير من اللسانيين ، بل يمكننا القول بأن هذا الفهم أصبح قارا في العقل اللساني الحديث . " [3]

ولكن لا تصل العلاقة الدال و مدلول إلى درجة التلازم ، إلا إذا دخلنا في المرحلة الثانية وهي مرحلة الاستعمال والتداول ، فإذا انطلقت هذه العلامة من قانون المواضعة إلى الاستعمال والتداول ، حصل بالاستعمال والتداول حالة تلازم ، حالة التلازم بين الدال ومدلوله هي التي تضمن المفهومية ، يعني تضمن الدلالة ، فالدلالة = دال + مدلول + حالة تلازم

إنّ زحزحة المُشار عن المُشار إليه أو الدال عن المدلول ، أي جعله غير مرتبط بالتصور الموجود خارج اللغة (المدلول) هو كسر للعقد المتفق عليه بين الجماعة اللغوية الذين باستعمالهم أحدثوا التلازم بين الدوال ومدلولاتها ، يعني أحدثوا الدلالة .

إن الخروج عن هذا الاتفاق هو قضاء على الظاهرة اللغوية التي من أهم أركانها الدوام المؤدي إلى صحة النموذج التواصلي في اللغة .

ما هو النموذج التوصلي ؟

النموذج التواصلي في اللغة هو أنني استطيع أن أتواصل معك بأن أحدث دلالة التطابق فيها بين المُشار والمشار إليه عندي يماثل التطابق بين المُشار والمشار إليه عندك ... إذا لم يحدث ذلك فنحن لسنا أمام ظاهرة لغوية ، بمعنى أننا نزعنا قابلية الانفهام عنها .

ما فعله التفكيكيون وعلى رأسهم " جاك ديريدا" هو تدمير العلامة اللغوية كما قررها الدرس اللساني الحديث ، واعتبروا حالة التلازم بين الدال ومدلوله هي حالة كبت اللغة ، وعليه فهي لا تعدو أن تكون حالة من القضاء على الإبداع ، والإبداع عندهم يستلزم القضاء على اللاغوس (منطقية اللغة) .

ب_ ثنائية الكلام / الكتابة :

يرفض التفكيكيون أيضا أسبقية الكلام (parole)على الكتابة (écriture)فدريدا يكشف من خلال كتابه " في علم الكتابة " de la grammatologie، عن نفور الفكر الغربي واستيائه من المكتوب ، وهذا النفور رغبة راسخة عند مفكرين من أمثال رسو وسوسير وليفي شتراوس في حصر الكتابة في وظيفة ثانوية وأداتية ، فالكتابة لديهم أداة لنقل المعنى ، وهو نوع من التقييد ، ومن هنا تأتي اشارات " دريدا " المتكررة إلى مشروعه بوصفه مشروعا تحرريا ."[4] ولكي يدلل على صحة رأيه في أن الكلام فرع والكتابة أصل يختار من اللغة الفرنسية لفظة différence avec e والتي تعني الاختلاف والإرجاء وابتكر كلمة أخرى في اللغة الفرنسية لم سيتقيها لا من المعاجم ولا من القواميس وهي كلمة différance avec a ، وقد ابتكر هذه اللفظة الجديدة للتلاعب بثائية الصوت والكتابة بحيث تنطق كلمة différence avec e بالطريقة الفونتيكية نفسها التي تلفظ بها لفظة différance avec a وهذا التلاعب جعله يثبت بأن اللغة المنطوقة لوحدها تبقى عاجزة عن إعطاء دلالة للفظة ، وأن دلالة اللفظة لا تتحدد إلا من خلال الكتابة ، وبهذا فإن الكلمات حسب رأي دريدا غير محددة بمعاني وان أقصى ما نستطيع إدراكه هو الاختلاف بينها وإرجاء المعنى إلى أجل غير مسمى ."[5]

إن معرفة الدال عند ديريدا تتحدد من خلال اختلافه عن الدوال الأخرى أما المدلول فهو معلق يتم التعرف عليه من خلال عملية الاختلاف والإرجاء ، فالاختلاف يعطي شرعية للكتابة التي تقوم بإثبات الدلالة بينما الإرجاء هو عنصر تفكيك هذه الدلالة أو هو بحث عن مدلول هارب على الدوام . " [6]

ج_ التقسيم الثنائي للغة :

يرفض التفكيكيون أيضا قانون التقسيمات الثنائية للغة والذي أقرته المناهج البنيوية ، وذلك بسبب أن هذا القانون يعمل على عقلنة اللغة ؛ أي جعلها قابلة للفهم الناتج عن أحادية المعنى .

باختصار فإن التفكيكية ضد الحقيقة ، ضد الثبات ، ضد التلازم ، ضد وحدة الفهم ، ضد القوانين والصيغ المنتجة لدلالة واحدة

د- من المعنى إلى الشبحية :

عرفنا بأن التفكيك ثورة على وحدة المعاني ، لذا ثار على كل المناهج والمذاهب والتيارات التي تعترف أو تتبنى مبدأ الإحالة المرجعية سواء كان هذا المرجع (الله) أو (الإنسان اللاغوس)،فلسفة التفكيك ترفض المركز الذي نشأت في ظله الفلسفات القديمة (الميتافيزيقا)، ترفض كذلك بعض الفلسفات الحديثة التي ظهرت في ظل الثورة الصناعية كالماركسية مثلا ، لتقرر أخيرا أن المركز موجود وغير موجود في الوقت ذاته .

ظهرت التفكيكية عام 1960 على يد الأب الروحي لها " جاك دريدا الذي ولد في مدينة الجزائر(حي الأبيار) عام 1930 ، وهو ينتمي لعائلة يهودية متوسطة . رحل إلى فرنسا في مرحلة الطفولة الأولى ، ولم يعاود الرجوع إلى الجزائر إلا مرة واحدة عام 1971 ، وقد بقيت انتمائه ملتبسة وغير محددة المعالم في كتابته فهو جزائري المولد يهودي الأصل فرنسي اللغة .

يذكر (دريدا) أنه أراد في البداية أن يكتب رسالة الدكتوراه في الفلسفة ، لكنه قال بأنّ الميزاج الأكاديمي الموجود لا يسمح بهذا التبعثر وهذا التفتيت الذي أريده ، لذا ترك هذا الموضوع واختار موضوعا آخر.

من مؤلفاته :

1_ في علم الكتابة .De la grammatologie 2_ الكتابة والاختلاف . 1967 L écriture et la différence

3_ هوامش فلسفية . Marges 1972. 4- أحادية الآخر اللغوية 1988 Le monolinguisme de l'autre "[7]

التفكيكية تعتقد بأنّ ارتباط الدال بالمدلول كان نتيجة وجود مرجع إحالي تقليدي ؛ أي نتيجة وجود تلازمية بين الدال والمدلول ، هذه التلازمية نشأت عن طريق التكرار والاستعمال .

وبما أن التفكيكية ترفض مبدأ الإحالة ، فهي تعمل على تقويضها ، وذلك بالقضاء على العلاقة الحاصلة بين الدال والمدلول ، لأنها تعتبر أن العلامة اللغوية التي قررها دوسوسير هي علامة مغلقة ، وبالتالي فهي تعمل على جعل هذه العلامة مفتوحة ، وذلك من خلال اعتبار الدوال ثابتة ، بينما المدلولات معلّقة وباختصار هي تدعو لوجود اللامعني ، مادام كل مدلول للنص الأدبي يعتبر مدلولا سيئا يحب تقويضه وتدميره ، وبهذا تدخل القارئ في متاهة البحث عن المدلولات المراوغة والهاربة دوما ، وهذا ما ألهم دريدا إلى إطلاق مقولته المشهورة التي تعتبر عصب التفكيك : "كل قراءة هي إساءة قراءة " [8]، وهذا لا يعني أبدا بأن القراءة السيئة ليست صحيحة بل بالعكس تماما ، فالقراءة السيئة هي الصحيحة ، غير أن هذه القراءة تخضع لمبدأ التفكيك لتنشأ قراءة صحيحة سيئة يتم تفكيها هي الأخرى وهكذا دواليك

يعتقد التفكيكيون " بأن النص يضم طبقات هيروغليفية ، ومداخل مجازية ، وشبكات دلالية مشتتة ، لذا فهم يسعون إلى قراءة تلك الرموز والنفوذ إلى تلك المداخل ، أو فتح الأبواب ، فيصبح التفكيك اقتفاء حثيثا لأشياء النص وأشلاء الكتابة ، وأصداء الآثار والبصمات .

إن الكتابة في عرفهم جسد مدسوس بالمكبوتات ومطاردة للأشباح التي تسكن هذا الجسد (الكتابة) ومحاولة اصطيادها بعد أن تَلْفُظَ الألفاظ أنفاسها ، واقتفاء أثرها بعد تشظي معانيها ، وذلك هو المستحيل دركه ، وإن كان من الممكن معرفته ، إنه إشارة بدون عبارة ، أو كائن لطيف دون جسد كثيف . رمزية المعنى تدل على أن اللغة لا يمكنها استنفاذ ما تريد (أو ما أرادت) قوله ، لأنّ هنالك إرادة في التعبير تتجاوز ما ينسقه الخطاب وما ترتبه اللغة ." [9]

وبهذا تصبح الكتابة ذات بنية طيفية أو هيئة شبحية ، تكون فيها الدوال مرجأة والمدلولات مؤقتة . هذا الإرجاء أو التأجيل يفتح شرخا لا محدودا بين الدال ومدلوله ، وهذا الشرخ أو المسافة تتخذ شكل حركة إجرائية مولدة للدلالة في بعدها اللامتناهي أو اللايقيني (Aporétique) أو الشبحي عكس التصورات البنيوية والنتيجة المنطقية لذلك ليس هنالك حقيقة بالمفرد ، بل هنالك حقائق ممكنة ولا متناهية ، والسبح من هذا المقتضى لا يمكن بلوغه أبدا."[10]

بهذا تغدوا النصوص صماء تحتاج إلى شحن ، والشحن يأتي من القارئ ، قراءة حفرية تهدف إلى خلخلة الخطابات ، وتقويض مرجعياتها ، هنالك قابلية دائمة للتشكيل في النص من جديد، وتكون على أنقاض قراءة أخرى ، ليس هنالك قراءة ثابتة ، " كل قراءة هي إساءة قراءة،كل تفسير هو تفسير سيئ ، لأنّ كل تفسير يجب أن يكون قابلا للتدمير.

لا تتوقف التفكيكية عند هذا الحد بل تعمل على تشيء معطيات موجودة عند القارئ،معطيات خارج اللغة من خلال خلخلة اللغة ، وجعل اللغة قابلة للامتصاص هذه الأشياء ، وقابلة للتعبير عنها.

التفكيكية تعلن ثورتها ضد المنطق المعلن للنص، تعلن ثورتها على حدوده البنائية ، تعارض إدعاءات النص الظاهرة ، تقوم على تقويض الانتظام التماسكي بين البنائية في

النص ، بهذا فهي تقرر تشظي النص والدلالات النصية من خلال تقويض المرجعية التي تمثل حالة ثبات في النص .

التفكيكية لا تعطي حقيقة واضحة وثابتة ، بل تعتبر البحث عن الحقيقة وهم .

إذن تلتقي التفكيكية مع أهم مقولة من مقولات ما بعد الحداثة وهي النسبية ، أو انتفاء الحقائق وانتفاء المرجعيات ، انتفاء الاعتقادات ، انتفاء التلازم ، المهم أنها حالة علمانية للنص.

تهدف التفكيكية إلى جعل النص رقعة قابلة للتشكل الدائم من أجل الكشف عن معاني غائبة مؤجلة ، معاني تتشكل بما اسماه ديريدا بلعبة المدلولات .

في الحقيقة التفكيكية لا تتعامل مع المدلول ، بل تتعامل مع دوال ، لأن كل قراءة ستنهدم لتقوم عليها قراءة أخرى وتتحول إلى دوال وهكذا ، فلا يوحد هنالك مدلول ، وإذا قلت لا مدلول ، فلا معنى ولا توجد علامة بمفهومها الدوسوسيري .

2- علاقة التفكيك بالواقع :

غير أن السؤال الذي يفرض نفسه علينا بإلحاح من ينتج من ؟ هل الواقع هو الذي ينتج اللغة أم أن اللغة هي التي تنتج الواقع ؟ وبعبارة أخرى هل استراتيجية التفكيك بما أنها نظرية في فلسفة اللغة هي نتاج واقع ؟

في الحقيقة لقد استفادت هذه الاستراتيجية من حالة التشكيك السائدة في المجتمع الغربي بشكل عام والمجتمع الأمريكي بشكل خاص ، خصوصا وأن عمليات التفكيك بدأت من داخل هذه المجتمعات ذاته : تفكيك الأسرة، نسف التاريخ والمعتقدات ، القضاء على الإثنيات والأقليات ، تفكيك الدين وإخراجه من الحياة العامة .

ولو أمعنا النظر في المجتمع الغربي لوجدنا أن ظاهرة ،انفصال الدال عن المدلول موجودة ضمن نسيجه وهو ما أدى إلى ظهور الكثير من المصطلحات مثل: " مصطلح أسرة ما بعد الحداثة الذي يشير إلى حصول تغير في منظومة هذه الكلمة فأصبحت تشير إلى العديد من المفاهيم أو المداليل : كلمة أسرة ، منذ عهد قريب وبالتحديد في أربعينيات القرن المنصرم كانت الأسرة تعني رجل وامرأة متزوجان ولديهم أطفال . ثم حدث تغيير جذري في مدلول الكلمة حيث أصبحت تعني :

رجل وامرأة قد يكونان متزوجان أو غير متزوجان ، قد يكون هنالك أطفال أو لا يكون ، قد يكون هنالك أطفال بالتبني .

ممكن مدلول كلمة أسرة يشير إلى امرأة وامرأة تعيشان سوية بأطفال أو بدون أطفال .

رجل ورجل ويتبنيان أطفال .

رجل وامرأة يعيشان مع أطفال ويقرر الرجل أن يتزوج برجل آخر ويأتي ويعيش معهم ."[11]

حتى مفهوم الإنجاب يتعرض لمتغيرات عديدة ، فهنالك أسر أصبحت بدل الإنجاب تتبنى حيوانا منزليا أليفا كلب ، قط ، عصفور ، أو حتى دمية .

أيضا بالنسبة لكلمة إنسان ، هذه الكلمة لها العديد من المداليل في الحضارة الغربية :

المدلول الأول :

"الإنسان الخارق السوبرمان : وهو من نتاج الفكر الامبريالي فهو إنسان يجسد المادة ، ويُولِد معياريته من ذاته ، ولا يؤمن بأي قيم خارجة عنها ، ولا يؤمن إلا بمبدأ إرادة القوة بوصفها قيمة وحيدة مطلقة ، وهو إنسان يرى بأنّ من حقه أن يوظّف الآخرين لحسابه ولتحقيق مصالحه بوصفه الأقوى والأكثر نفوذا . "[12]

المدلول الثاني :

في مقابل هذا الإنسان الخارق هنالك إنسان دونه مرتبة ، وهو الذي يستجيب ويذعن للطبيعة (المادة) ويتكيف مع المعيارية التي تُولَد من داخل الطبيعة ، وقد تولد عن هذا النوع العديد من الأشكال : الإنسان البرجماتي ، الإنسان المهجن ، الإنسان المدجن ، الإنسان المتشيء ، وسمة هذا النوع الأساسية أنه إنسان وظيفي يعرّف في ضوء وظائفه الاقتصادية والبيولوجية ، فهو إما إنسان اقتصادي ، أو إنسان جسماني أو جنسي أو خليط منهما .

إذن نحن هنا نتعامل مع واقع يفرض على اللغة أن تحدث انفصال بين دوالها ومدلولاتها،وذلك نتيجة تدمير أو تغييب المرجعية . إن حضارة الما بعديات حضارة المتغيرات لا الثوابت،حضارة تسقط الإنسان من إنسانيته وتقوم بدراسته بمقولات غير إنسانية . "[13]

3_ مميزات الممارسة التفكيكية :

إن النقد التفكيكي لا يفكِّك النص ويعيد تركيبه ليبيّن المعنى الكامن في النص (كما هو الحال مع النقد السياقي والنسقي) وإنما يحاول أن يكشف التوترات والتناقضات داخل النص وتعددية المعنى والانفتاح الكامل، بحيث يفقد النص حدوده الثابتة ويصبح جزءاً من الصيرورة ولعب الدوال، ومن ثم تختفي الثنائيات والأصول الثابتة والحقيقة والميتافيزيقا.

وقد أشار كثير من الدارسين إلى أن الممارسة التفكيكية تتسم بما يلي:

أولا . ممارسة مُمِلَّة لأنها تقول الشيء نفسه عن النصوص كافة ، كما أنّ نتيجتها معروفة مسبقاً.

ثانيا . لا يمكن اعتبار التفكيك ممارسة جديدة لأنها مجرّد انتقاء لما هو متداول في الفكر.

ثالثا. قامت التفكيكية على مبدأ إلغاء سلطة الكاتب غير أنها ألغت كذلك سلطة القارئ وأدخلته في لعبة المدلولات والبحث اللانهائي عن المعاني الهاربة دوما.

4 - نقد التفكيكية:

من بين ردود الأفعال التي أثارتها النظرية انتقادات عديدة لعل أهمها في نظر "ميجان الرويلي" و " سعد البازغي " أنها رغم قدرتها التقويضية على زعزعة المسلمات التقليدية الميتافيزيقية الغربية تصل في النهاية إلى " عملية محيرة " ، " " فدريدا " لم يقدم بديلا عن مسلمات الميتافيزيقا الغربية بعد أن قوضها ، بل إن البديل كما يرى " دريدا " نفسه سيتسم بسمات الميتافيزيقا لا محالة ، لذا اكتفى دريدا بالتفويض ، " ويذهب الرويلي وسعد البازغي" ويشاركهما في ذلك " عبد الوهاب المسيري" إلى أن التفكيكية / التقويضية تدين بمنهجها لممارسات التفسير التوراتي اليهودي وأساليبه ، فكل ما فعله " دريدا " هو نقل الممارسات[14] التأويلية للنصوص المقدسة اليهودية وتطبيقها على الخطاب الفلسفي مرسيا بذلك دعائم ما ورائية لاهوتية مألوفة لتحل محل الميتافيزيقا الغربية ، أما المسيري فيرد الأفكار الرئيسية في نظرية " دريدا " إلى أصولها اليهودية في مداخل : الأثر ، تناثر المعنى ، الهوة ، الكتابة الكبرى والأصلية التمركز حول المنطوق ، من موسوعته يورد تأصيلا فكريا تاريخيا لهذا الأثر الواضح ليهودية " " دريدا " وللفكر اليهودي في نظريته النقدية وقد نقل الدكتور " عبد العزيز حمودة " في " المرايا المحدبة " نماذج عديدة من النقد الذي وجه للتفكيكية / التفويضية ، فمثلا " ليتش" يقول في تمهيده لدراسته عن التفكيكية التقويضية ، إنها باعتبارها صيغة لنظرية النص والتحليل تخرب كل شيء في التقاليد تقريبا وتشكك في الأفكار الموروثة عن العلاقة واللغة والنص والسياق والمؤلف والقارئ ودور التاريخ وعملية التفسير وأشكال الكتابة النقدية وفي هذا المشروع فان الواقع يتهار ليخرج شيء فضيع [15]

حوصلة :

حقا إن التفكيك أرض بلا حدود وعالم بلا سقف ، ومثل هذا الخطاب الواصف ليس سوى محاولة لتوصيف هذا الفكر المابعد حداثي الداعي إلى تحرير الإنسان من كل ما من

شأنه أن يكبح الإبداع ، ولكن هل الحرية تعني كسر جميع القيود ، أليست بعض القيود هي من تجعلنا فعلا نعي ونفهم معنى كلمة الحرية ، إن المغالاة في استملاك الشيء هو إلغاء له.

الإحالات :

[1]- ابن جني : الخصائص ، تح : محمد علي النجار، ج1، الكتب العلمية ، بيروت ، دط،دت،ص33.

[2]-محمد سالم سعد الله : ما وراء النص ،ص59.

[3]-كلاوس هيشن : القضايا الأساسية في علم اللغة ،تر: سعيد حسن بحيري ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط2، 2010،ص58.

[4]- محمد شوقي الزين : جاك ديريدا ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ،ط1، 2011، ص 20

[5]- عبد العزيز حمودة : من البنيوية إلى التفكيك ، ص 374-375.

- ينظر أيضا : محمد شوقي الزين : جاك ديريدا ،ص48،47.

[6]- ينظر: عبد العزيز جمودة : المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك،ص 378.

[7]-جان غردان : المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا ،تر:عمر مهيبل ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ،ط1، 2007،ص171.

[8]- عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك،ص

[9]- محمد بكاي : مقولة الشبحية عند جاك دريدا ،إشراف محمد شوقي الزين ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1، 2011،ص143.

[10]- محمد بكاي : مقولة الشبحية عند جاك دريدا ،ص144.

[11] -https://ar.wikipedia.org/wiki/نواة_أسرة

[12]- محمد سالم سعد الله : ما وراء النص ،ص14.

[13]-محمد سالم سعد الله : ما وراء النص ،ص15

[14]ميجان الرويلي (دكتور) وسعد البازغي (د) دليل الناقد الأدبي ، دون ناشر، 1415ه ، ص54.

- عبد الوهاب المسيري (د) موسوعة اليهود واليهودية _ نموذج تفسيري ، دار الشروق ، مصر ، ط1 ، 1999، مجلد 5 ، ص420 الى 440

[15]عبد العزيز حمودة: ، المرايا المحدبة من البنيوية الى التفكيك ، عالم المعرفة ، رقم 232، المجلس الوطني للثقافة والآداب ، الكويت ، 1998، ص 291-292.